

ضريح بلاد القيطون دراسة وصفية تحليلية

The mausoleum of Bilad al – Qaitoun Analytical descriptive study

سهيلة كردين^{*}

1مخبر البناء الحضاري، جامعة الجزائر2،(الجزائر) kerdine.souhila@univ-alger2.dz

تاريخ القبول:2025/11/23

تاريخ الإرسال: 2025/07/27

ملخص:

تناول هذا البحث دراسة ضريح بلاد القيطون الملقب بالحبس، الواقع بمدينة سي مصطفى بولاية بومرداس، وهو معلم جنائزي بارز شُيّد لملك بربري مجهول الهوية. يبرز البحث أوجه التشابه بينه وبين الأضرحة النوميدية والموريطانية أمثال الضريح الملكي بتيبازة ومعلم لجدار بالفرندة ومعلم سيقا بعين تيموشنت واقبو وضريح الخروب وغيرها من المعالم الجنائزية رغم التباين الزمني بينها. كما يناقش دلالة موقعه المرتفع غرب منطقة القبائل الكبرى وأبعاد اختياره. تنطلق الدراسة من أسئلة حول شخصية الملك وأصل التسمية وطبيعة علاقته بالأضرحة القديمة. وقد اعتمدنا المنهج التاريخي والمقارن لتحليل تفاصيل العمارة والزخرفة، لنخلص إلى نتائج أهمها استمرارية الرموز المحلية في ظل الرومنة، وتداخل التأثيرات المعمارية المحلية والأجنبية، إضافة إلى إبراز خصوصيات تميز ضريح بلاد القيطون عن غيرها من المعالم الجنائزية. كما يفتح البحث آفاقًا جديدة لفهم التحولات الثقافية في المنطقة خلال العصور القديمة المتأخرة، ويرسخ أهمية هذا المعلم في تاريخ العمارة الجنائزية بشمال إفريقيا في الفترة القديمة.

كلمات مفتاحية: غرفة جنائزية؛ رموز؛ تزيينات؛ قبر؛ ضريح.

Abstract :

This research examines the Mausoleum of Blad Guitoun, also known as "El-Habs," located in the city of Sidi Mustapha in Boumerdes Province. It is a prominent funerary monument built for an anonymous Berber king. The study highlights the similarities between this mausoleum and Numidian and Mauretanian tombs, such as the Royal Mausoleum at Tipaza, the monument of Djeddar at Frenda, the monument of Siga at Ain Temouchent, Ikoubou, and the mausoleum of Kherroub, among other funerary monuments, despite the chronological variations between them. The research also discusses the significance of its elevated location west of the Greater Kabylia region and the dimensions of this choice. The study addresses questions concerning the king's identity, the origin of the name, and the nature of its relationship with ancient mausoleums. We adopted a historical and comparative approach to analyze architectural and decorative details, concluding with key findings, most notably the continuity of local symbols during Romanization, the overlap of local and foreign architectural influences, and the distinctive characteristics that distinguish the Mausoleum of Blad Guitoun from other funerary monuments. The research also opens new horizons for understanding cultural transformations in the region during late antiquity and establishes the importance of this monument in the history of funerary architecture in North Africa during the ancient period.

Keywords: Burial chamber; symbols; decorations; tomb; mausoleum.

1- مقدمة:

إن وجود الضريح الملكي ببلاد القيطون (سي مصطفى حالياً)، وفي منطقة وفيرة بالعناصر الحيوية (ماء + تربة) دليل على أن المنطقة كانت في يوم ما أهلة بالعمران (GSELL, ST., 1898, p. 481) كما أنّ انتصاب الضريح الملكي ببلاد القيطون دليل على أن المنطقة كانت في يوم ما حيراً وموطناً لمملكة بربرية، كان لملوكها وأمراءها نفوذ وسلطان على المنطقة وما جاورها من الأقاليم والأوطان. وبالرغم من غياب الوثائق التي تساعدنا على معرفة هوية الدفين، والوثائق التذكارية التي تخلد لنا تاريخ بنائه وهوية من أشرف على بنائه، إلا أننا اعتمدنا على بعض الدراسات التي وجدناها في ملحق مجلة Académie des inscriptions et belle lettres (GSELL, ST., 1898, p. 499) وعلى ما جاء في مجلة أفريقيا روماننا، كما استندنا إلى ما قاله المؤرخ أميان مارسيلان AMMIEN MARCELLIN، وإلى الدراسة المعمارية والأثرية التي قام بها الباحث ستيفان غزال وغابرييل كامبس حول العناصر المعمارية والمواضيع والرموز الزخرفية التي يتركز عليها ويتزين بها ضريح بلاد القيطون، والتي أثبتت تناسقها وتشابهها مع العناصر المعمارية والرموز الزخرفية التي شاع استعمالها في البنايات الدينية والعامة (كنائس، بازيليكات) العائدة للقرن الرابع بعد الميلاد. وللتعمق في الدراسة ارتأينا أن نطرح الإشكالية التالية والمتمثلة في الأسئلة الآتية: من هي الشخصية الملكية التي ساد نفوذها في منطقة وادي يسر خلال القرن الرابع ميلادي، ويمكن أن تُنسب لها ضريح بلاد القيطون؟ لماذا سُمي الضريح بهذا الاسم؟ ما هي أوجه الشبه والاختلاف بين ضريح بلاد القيطون والأضرحة الملكية النوميديّة والموريطنانية؟ وما هي مظاهر فن القرن الرابع ميلادي التي يتميز بها هذا الضريح؟

2- نبذة تاريخية عن ضريح بلاد القيطون

من المسلّم به لدى المؤرخين قاطبة أنه لما تقلّص ظل الهيمنة الرومانية عن المقاطعة القيصرية بفعل المقاومات المورية المتكررة التي أرهقت كاهل روما السياسي والعسكري بالمنطقة، وجدت روما حلاً وهو أن تُسند مهام إدارة القيصرية إلى الأمراء المتحالفين الذين كان نفوذهم يضمن لها هيمنتها السياسية والاقتصادية، مقابل اعترافها لهم بشرعية سيادتهم على أوطانهم. وكان من بين هؤلاء الأمراء المتحالفين بمنطقة وادي يسر الملك نوبل، أحد أشهر ملوك زاوارة وجرجرة، الذي كان يستوطن منطقة يسر التابعة للمقاطعة القيصرية، والذي حمل على عاتقه مهمة الحفاظ على السلام الروماني بالمنطقة.

وبعد تعيين الملك نوبل قائداً على الجيوش الرومانية والفرق المساعدة من الأهالي بهذا الجزء من موريطنيا القيصرية، اتخذ هذا الأخير من حصن الصومعة ببني عيشة مقراً لإقامته قاعدة لمراقبة تحركات الأهالي بين إقليم المتيجة ووادي يسر.

هذا ما ذكره المؤرخ أميان مارسيلان AMMIEN MARCELLIN ، حيث يذكر أن الملك نوبل ينتسب إلى قبيلة جوباليني JUBALINI ، وأنها منطقة كثيرة الجبال بممرات حلزونية مخيفة المسلك. كما يضيف أن المؤرخ غزال وتيودوس يذكران أن المنطقة التي كان يحكمها الملك نوبل تقع قريبة من أوزيا (سور الغزلان حاليًا) بحوالي 60 كلم، ومن الأخضرية بحوالي 50 كلم، وهي تقع في ثنية بني عيشة.

كما يضيف المؤرخ أميان مارسيلان AMMIEN MARCELLIN أن لهذا الملك نوبل أهمية سياسية كبرى، كونه كان من أعظم ملوك المور، مستندًا إلى النقيشة التالية:

NUBEL VELUT REGULUD PER
NATIONES MAURICAS PONTISSIMUS

ترجمة النقيشة :

تذكر النقيشة الملك الموريطاني نوبل على أنه أعظم ملوك الشعوب المورية (J.P.LAPORTE، 2010، صفحة 981 P) وفي هذه المنطقة نشأ أبناؤه فيرموس Firmus وساماك Sammac، مازوكا mazuca، ديوس Dius، ماقزازال Magzezel، جلدون Gildon وابنته silia تحت كنف أبيهم الذي سعى لينشئهم نشأة رومانية ولهميهم لخلافته على المنطقة. وفي سنة 362م توفي الملك نوبل تاركًا ابنه زماك الابن الشرعي خليفة له، والذي تزعم منطقة ملاكو وكان ولاؤه للرومان دائمًا متخذًا منهج أبيه نوبل. لكن أخاه فيرموس، فكانت علاقته بروما مخالفة لما كان عليه والده الملك نوبل وأخوه سماك، حيث امتاز بتمرده فقتل أخاه سماك من أجل العرش.

ساد في المنطقة أثناء قيادته عدم الاستقرار نتيجة ثوراته على الرومان، التي اشتعل لهيما من حصن الصومعة ببني عيشة (بلدية الثنية) إلى الأقاصي الشرقية والغربية من موريطانيا القيصرية خلال السنوات 372-375م، حيث استطاع خلالها القائد فيرموس أن يسيطر نفوذه على كامل مدن القيصرية ما عدا تيبازة التي استعصت عليه لحصانتها ومناعتها.

إلى جانب القائد فيرموس كان الملك إغمازن ملك قبيلة إيزفلاسن (جنوب جرجرة)، لكن أخاه جيلدون هو الذي تحالف مع القائد الروماني تيودوس للقضاء على فيرموس وثورته، حيث تمكن هذا الأخير في معركة أزفلاسن سنة 375م أن يغدر بالقائد فيرموس بإلقاء القبض عليه وإرسال جثمانه إلى القائد تيودوس الذي كان يعسكر بحصن سوبيكارنس (G. Camps، 1998).

بعد كل هذه الحقائق التاريخية نجد أنه من المجازفة أن ننسب ضريح القيطون إلى الملك إغمازن ملك قبيلة إزفلاسن (جنوب جرجرة)، وذلك للبون الشاسع الذي يفصل بين مقر إقامته عن منطقة بلاد القيطون، كما أنه من الخطأ أن ننسب الضريح الذي هو عنوان السلم والسيادة

إلى الأمير فرموس الذي ظل هائما طريدا يجوب السهول والأنجاد من أجل القضاء على الوجود الروماني بالشمال الإفريقي وتحقيق السيادة المورية المسلوبة.

وبالاستناد إلى وقائع المعهد الفرنسي في اجتماع 8 يوليو 1898م (GSELL, ST., 1898, p. 482) يُذكر أن ضريح بلاد القيطون لا يمكن نسبته إلى أحد القادة الرومان، وإنما إلى أحد الملوك الأفارقة المورين الذين تأثروا بالرومنة بحكم أنهم أصبحوا حلفاء لروما. كما يذكر أنه تم تشييد قلعة محصنة في نفس المكان، والتي لم يتبق منها سوى مراعٍ قديمة، وأنها ليست لها علاقة بضريح بلاد القيطون الذي نُسب للملك نوبل (J.P.LAPORTE, 2010, pp. 981-983)

كما تشير بعض النقائش إلى بعض الأعمال التي قام بها نوبل بمنطقة وادي يسر، ففي روزقونيا (بلدية برج البحري) عثر علماء الآثار خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر ميلادي على نقيشة تذكارية تعود إلى القرن الرابع ميلادي تحمل اسم الملك نوبل، تشيد هذه الأخيرة ببناء الملك نوبل لبازيليكا مسيحية بالمنطقة. (Gsell, S., 1903, p. 21-45) كما عُثر في حصن الصومعة ببني عيشة في القرن التاسع عشر ميلادي على لوحة تذكارية كانت تعلو مدخل القصر الذي بناه الملك نوبل بحصن الصومعة (أنظر الشكل رقم 1)، حيث تشير هذه النقيشة إلى القصر وممتلكاته العقارية التي تركها الملك نوبل لابنه فيرموس بحصن الصومعة.

SPES IN NOMINE DEI /PER TE NUBEL/ISTA VIDEMUS/FIRME POSSIDEAS CUM
TUIS/BONIS BENE

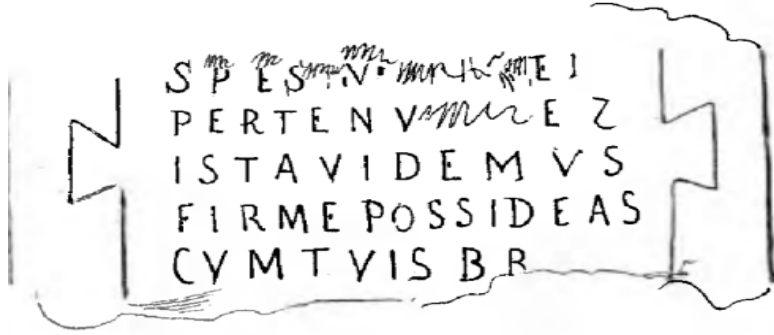
الترجمة: نأمل باسم الله أن الذي تركه لك نوبل يا فيرموس أن تملكه بشكل جيد.
أما بالنسبة للدراسة الأثرية، فإن ضريح بلاد القيطون وإن انتسب في عناصره المعمارية ومواضيعه الزخرفية إلى البناءات الدينية والعمومية العائدة إلى القرن الرابع والنابعة من أصول الفن المسيحي، إلا أن جوهره المعماري يوحى بأصوله المحلية المورية وكأن الملك الموري الذي شيد الضريح أراد أن يميز بين أصالة التقاليد المعمارية للأضرحة الملكية المورية وبين حاضر العمارة الدينية الرومانية التي أخذت مع طلائع القرون الميلادية الأولى تصطبغ بصبغة الفن المسيحي.

الشكل 1: نقيشة توضح النص اللاتيني الذي عثر عليه

أعلى باب القصر بحصن الصومعة

(إهداء لبني عيشة أثار 1868 تعود للباحث vigneral)

Source: Jean-Pierre Laporte, 2013, p104, fig13.



نص النقيشة:

SPES IN NOMINE DEI /PER TE NUBEL/ISTA VIDEMUS/FIRME POSSEDEAS CUM
TUIS/BONIS BENE

المتجمة كالتالي: نأمل باسم الرب أن الذي تركه لك نوبل يا فيرموس أن تملكه بشكل جيد.

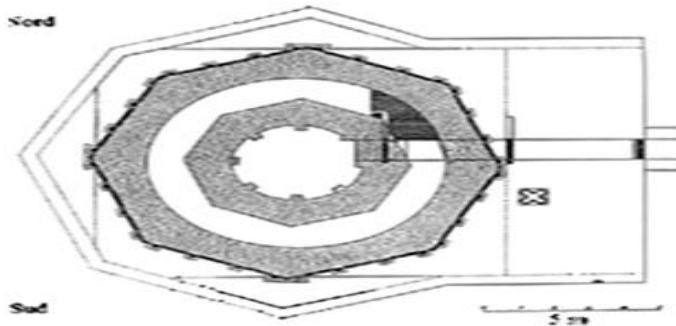
1-2- دراسة وصفية لضريح بلاد القيطون:

1-1-2- الوصف الخارجي لضريح بلاد القيطون:

أ. أرضية الضريح: يحيط بالضريح درجان بعرضين مختلفين، وهما يحيطان به من الجهات الشمالية والجنوبية والغربية. أما من الناحية الشرقية فنجد منصة أمامية أو ساحة بُنيت بالحجارة المصقولة، وهي تتقدم الضريح بحوالي 4 أمتار و متجهةً نحو الشرق. جدران الساحة تمتد نحو الناحية الغربية لتقطع بذلك الدرج المحيط بالضريح، كما يتواجد تحتها المدخل الجوفي للضريح الذي نصل إليه عبر سُلّم مدرّج. (G. CAMPS, 1984, صفحة 184) (أنظر الشكل رقم 2).

الشكل رقم 2: مخطط أرضية ضريح بلاد القيطون

Source: St. Gsell. CRAI, 1898, P. 482



يذكر الباحث قابريال كمبس بأن الساحة من المفروض أن يتقدمها عدد من الأدراج التي مازالت آثارها تشهد على وجودها (J.P.LAPORTE, 2010, CTP.93)، أمام هذه الساحة نجد قاعدة من أربعة فصوص عثر عليها الباحث ستيفان غزال، والذي يذكر بأنها مكان لأربعة أعمدة منحوتة في حجر واحد نوع المونوليت، وبأنها في مكانها الأصلي، يصل ارتفاعها إلى 0,56م وطول ضلعها حوالي 0,78م. يقول عنها الباحث قابريال كمبس بأنها شبيهة بالمباني الصغيرة كالمذابح التي توضع بالقرب من الأضرحة على الساحة الأمامية في الهواء الطلق، ويرجح على أنها قبو لمذبح صغير بأربع قواعد مترابطة وتحمل بين أربعة وخمسة أعمدة، والذي يعود إلى الفترة الرومانية.

كما تعطينا الباحثة الأثرية نصيرة بن صديق نموذجا عنه محفوظ في متحف ولاية سطيف (أنظر الشكل رقم 2)، لهذا قام الباحث جون لابورت بإعادة تصور لمذبح ضريح بلاد القيطون والذي يتقارب والمذبح المحفوظ من متحف سطيف، إلا أننا لا نعلم الغرض منه ولا تاريخه، إلا أن أصوله تعود إلى الفترة الفينيقية والذي دام استخدامه إلى غاية الفترة المسيحية (أنظر الشكل 3). هذا المذبح الموجود بضريح بلاد القيطون يجعلنا نتساءل على نوع هذه الطقوس وما طبيعتها لنفتح بذلك مجالا لبحث جديد مستقبلا.

الشكل رقم 3: صور لبقايا من قاعدة مذبح يعود لضريح بلاد القيطون

أ- قاعدة بأربعة فصوص مكان أربعة أعمدة

ب- إعادة تصور لمذبح ضريح بلاد القيطون الشبيه بالمذبح الموجود بمتحف سطيف



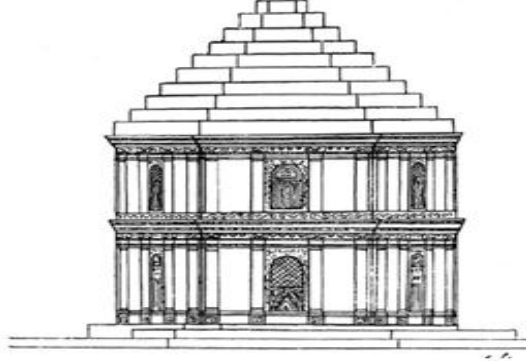
Source: J .Pierre La porte, p94

ب. الشكل المعماري لضريح بلاد القيطون:

ضريح بلاد القيطون ثُماني الشكل، وهو شكل نادر في الأضرحة القديمة بمنطقة شمال إفريقيا. وهو مزود بطابقين ويُتَوَجَّ بسقف هرمي مدرج. يقول الباحثون بعد دراسة مقارنة لأضرحة شمال

إفريقيا مثل المدغاسن وقبر الرومية وضريح تاكسبت بأنّ السقف الهرمي مكوّن من عدد من المدرجات التي أُحصيت بعشرة مدرجات، سُمك كل منها يبلغ حوالي 0.40 م، حسب ما يذكره الباحث جان بيير لابورت في مقاله الموسوم بـ"ضريح بلاد القيطون" وهو ما يجعل الارتفاع المحتمل لهذا الضريح بحوالي 60, 9 (P.LAPORTE, J., 2010، صفحة 94) (أنظر الشكل 4).

الشكل رقم 4: إعادة تصور لهيكل ضريح بلاد القيطون



Source: J. Pierre La Porte, p94

ج. الزخارف المعمارية المزينة لضريح بلاد القيطون:

الواجهات والأبواب الوهمية: يتكون الضريح من أربع واجهات كل واجهة مزينة بأبواب وهمية مركزية وتعد الباب الجنوبية أكثر الأبواب التي قدمت لنا تفاصيل الزخارف المزينة لها (VEGNERAL, Ch), 1868، الصفحات 100-101 وهي مكونة هي الأخرى من لوحين متموضعين الواحدة فوق الأخرى: اللوحة السفلى "أ" شكلها مستطيل واللوحة العلوية "ب" تنتهي من الأعلى بحجة مستديرة اللوحة "أ"، زُينت في زواياها بأنصاف أعمدة تحمل تيجان أيونية مزينة بحلزنات كبيرة توحى إلى فن رديء الصنع، وهي شبيهة بالتيجان التي زينت الكنائس المسيحية بتيبازة، هذه التيجان حملت على أعمدة طولها حوالي 2,65م وترتكز على قواعد آتيكية ترتكز بدورها على بلاطة عالية مزخرفة،

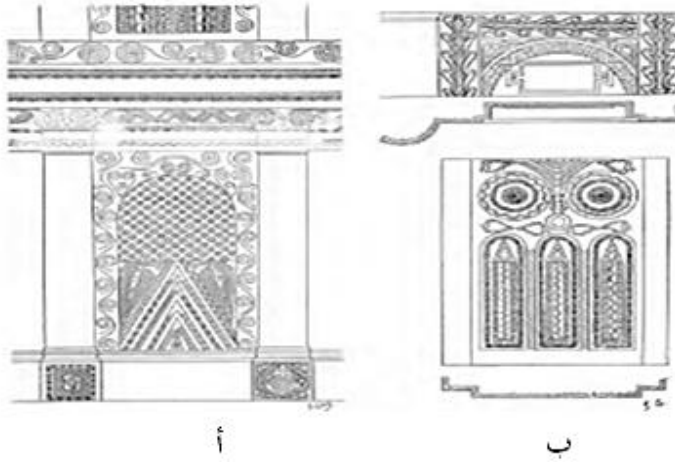
تتموضع هذه العناصر المعمارية في زوايا الواجهات الأربعة وتؤطر الحيز الموجودة به الأبواب الوهمية المركزية والمزينة هي الأخرى بزخارف هندسية ونباتية منجزة بنحت غائر. ونجد بين الأعمدة والأبواب الوهمية مساحة زينت بعدد كبير من الحلزونات المعمارية وأوراق سهمية (P.LAPORTE, J., 2010، صفحة 93) لتخبي الفراغ الحاصل وتعطي للواجهة رونقا. ومن الأعلى نجد اللوحة "ب" المزينة بزخارف نباتية وهندسية وتنتهي من الأعلى بشكل مستدير وحول الحجة

المستديرة للوحة يتموضع نحت على نفس الحجر لمساحة فارغة ربما كانت مكانا للنقيشة (أنظر الشكل 5).

الشكل رقم 5 نموذج من الأبواب الوهمية المزينة لضريح بلاد القيطون

أ- اللوحة السفلية من الباب الوهمي

ب- اللوحة العلوية من الباب الوهمي عليه مكان النقيشة



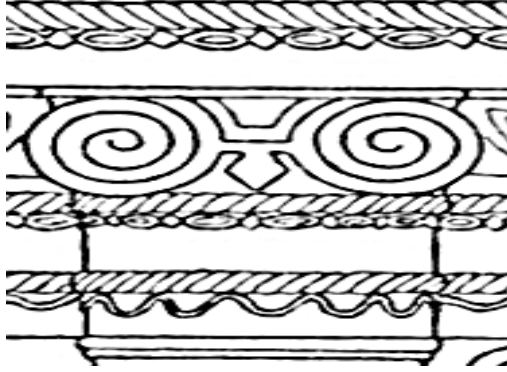
Source: St.Gsell ,CRAI,1898,P485, fig3

- التيجان: زُينت أبواب الواجهات بأربعة تيجان أيونية: اثنان في زوايا الواجهة واثنان مباشرة فوق الباب الوهمي، كما هو موضح في الشكل رقم 3، زُينت من الأعلى إلى الأسفل كالتالي: الوسادة المربعة زينت بصفيرة، تلمها بيضيات معمارية، تلمها فاصلة صماء سمكية، ثم فاصلة رفيعة بعد ذلك نجد حلزنتين كبيرتين يذكر عنها الباحث بأنها ذات نمط موريطاني وهي شبيهة بتزيينات كنائس منطقة تيبازة (J.P.LAPORTE, 2010، صفحة 95) تتوسطهما ورقة سهمية وتتجنىها أوراق نباتية، تلمها صفيرة تتموضع تحتها بيضيات معمارية، تلمها فاصلة سمكية صماء وصفيرة، يلمها رباط مزدوج موج. تحته نجد فاصلة صماء سمكية لتنتهي في الأسفل بفاصلتين رفيعتين تستند على الأعمدة (أنظر الشكل 6).

كما عثر على تيجان أيونية بزخرفة أخرى وتيجان كورنثية واحد عادي والآخر ذو مسند أي يعود لأحد أركان معلم ما، زُينت بأوراق الأقنعة المعمرة المنحوتة (أنظر الصورة 1).

الشكل رقم 6 تفاصيل تاج أيوني مزين لواجهات ضريح القيطون
بتصرف من الباحثة عن

St.Gsell,CRAI,1898,P485,Fig3



الصورة رقم 1: تاج أيوني على اليمين وتاجين كورثين من اليسار

Source: J. Pierre, La Porte, p107.



- الأعمدة: زُينت واجهات ضريح بلاد القيطون بأنصاف أعمدة ملساء في الطابق الأول والثاني، يذكر الباحث جون بيار لا بورت بأن أعمدة الضريح في الطابق العلوي كانت أرفع من الأعمدة التي زُينت الطابق السفلي، ربما يرجع ذلك لخفة الثقل الذي كانت تحمله.
- القواعد: كانت القواعد المزينة لضريح بلاد القيطون من النوع الآتيكي الشرقي أو الإغريقي وهي مكونة من بلاطة سميكة مزخرفة بزخارف هندسية ونباتية مختلفة، تظهر على الشكل

رقم 7 تعلوها سكوتيا ، بعدها طوق علوي لتنتهي في الأعلى بالفاصلة التي تتصل بجذع العمود (أنظر الشكل 8).

الشكل رقم 7 زخارف بلاطات قواعد ضريح بلاد القيطون

Source : St.Gsell ,CRAI,1898,P486,fig.4



الشكل رقم 8: تفاصيل قاعدة آتيكية ذات البلاطة المزينة لضريح بلاد القيطون
بتصرف من الباحثة عن

St.Gsell,CRAI,1898,P485,Fig3



- الزخارف التزيينية:

➤ الزخارف الهندسية: استعملت تقريبا كل أنواع الأشكال الهندسية والتي تمثلت في المربعات وأنصاف الدوائر والمثلثات والمستطيلات والحلزونات الدائرية والتموجات بشكل خطوط مموجة ومنكسرة والدوائر الصغيرة متمثلة في البيضيّات المعمارية (أنظر الشكل 9)، كما نُحتت النجمات السداسية في أجزاء من قطعة معمارية والحلزونات والخطوط المنحنية على الفسيفساء التي وجدت بالقرب من الضريح (أنظر الشكل 10).

الشكل رقم 9: صور لأجزاء من الطنف المزين لضريح بلاد القيطون

Source: J. Pierre, La Porte, p97



الشكل رقم 10: صور توضح فسيفساء ذات الزخرفة الهندسية وجزء من قطعة

معمارية تعود إلى ضريح بلاد القيطون

Source: J. Pierre, La Porte, p110.



- الزخارف النباتية: تمثّلت في استعمال أوراق اللبلاب بكثرة وهي من سمات الفن المسيحي وأوراق الأفنتة المعمرة المنحوتة الموجودة على التيجان.
- الزخارف الأدمية: زُيّن الضريح بنقش ديني يتمثل في امرأة جالسة (الآلهة رافعة يدها اليمنى إلى السماء وعلى يسارها نقش يحمل صورة آدمي واقف يستمع إلى تعاليمها، هذا إضافة إلى الأعداد الهائلة من الحجارة ذات الأحجام الكبيرة استخدمت في إنشاء الطريق الحديدي الذي يربط مدينة الجزائر بولاية تيزي وزو)، كما يظهر الشكل الأدمي في أحد أجزاء التابوت الخاص بالغرفة الجنائزية (أنظر الشكل 14). (St. Gsell, p. 481)
- الزخارف الحيوانية: كانت الزخارف الحيوانية حاضرة في زخرفة ضريح بلاد القيطون ؛ فقد زُيّنت بلاطات القواعد بأنصاف القواقع (أنظر الشكل رقم 7)، كما زُيّنت قطعة حجرية بشمال المنطقة، وهي تعود إلى أسفل أحد واجهات الضريح، أو إلى الطابق السفلي كما يذكر الباحث جون بيار لابورت، والتي يقول إنها زخرفة مسيحية تعود إلى القرن الرابع أو الخامس الميلاديين، (P.LAPORTE, J., 2010، صفحة 96) وهي نحت لزوجين من الأسماك وحلزونات أوراق من نبات اللبلاب (أنظر الشكل رقم 11).
- نجد كذلك نحتين لأسدين زينّا الباب الرئيسي للضريح؛ أحدهما يكاد يختفي نحته تماما حيث يذكر عن وجوده الباحث كامبس بأنّ الأسد كان رمزا للدّمَار وأنه سرعان ما أصبحت له علاقة وطيدة بالموت في شمال إفريقيا (CAMPs G, 1961، صفحة 555) (أنظر الشكل رقم 12).

الشكل رقم 11: قطعة حجرية تحمل نحتًا لزوجين من الأسماك

St. Gsell, CRAI, 1898, P486, Fig4



الشكل رقم 12: تمثيل أحد الأسدين زينا المدخل الرئيسي للضريح

Source: J. Pierre, La Porte, p98.



2-1-2- الوصف الداخلي لضريح بلاد القيطون:

أ. المدخل: مدخل الضريح تحت أرضي نصل إليه عبر درج يوصلنا إلى فناء ضيق عرضه 0,95م وطوله 3,50م ، ثم نجد بابا طوله 1,32م وسمكه 0,17م؛ وهي لوحة حجرية ذات جبهة مستديرة من أعلى، عبارة عن باب انزلاقي يمكن فتحها بالضغط أعلى الجبهة للولوج إلى فناء يوصلنا إلى غرفة الدفن.

ب. المنصة الأمامية: وهي عبارة عن ساحة أمامية متّجهة نحو الشرق وذلك لاستمرار علاقة الطقوس الجنائزية بعبادة الشمس لدى المجتمعات الليبية (شنيتي، 2003، صفحة 429)، وقد خصصت هذه المنصة للأعياد والمراسيم الجنائزية.

ت. المدخل باتجاه الشرق: هو مدخل أرضي يؤدي إلى الأروقة الداخلية المؤدية بدورها إلى غرفة الدفن، تتّجه هذه الأبواب نحو الشرق؛ وهي جهة الإله الشمس الذي قُدِّس كثيرا ومنذ القدم.

ث. الأبواب الوهمية: أبواب ضريح بلاد القيطون الوهمية عبارة عن إفريز من الأبواب الصمّاء تحيط بها أعمدة متوّجة بتيجان أيونية.

ج. السقف الهرمي المدرج: يزين ضريح بلاد القيطون سقفا هرميا مدرّجا والمقتبس من نمط الأهرامات المصرية.

ح. الأروقة الداخلية والأبواب الانزلاقية: توصل هذه الأروقة إلى غرفة الدفن وتمتاز بالطول وقلة الاتساع (ضيقة).

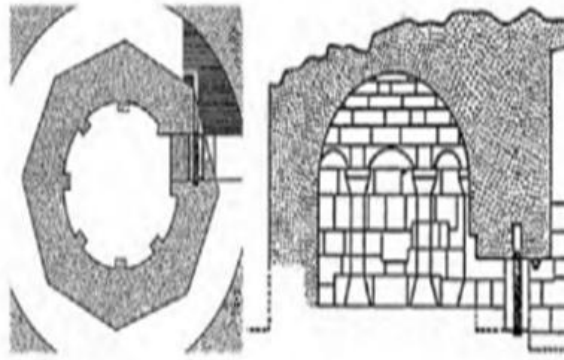
تفتح هذه الأروقة بأبواب عبارة عن ألواح حجرية انزلاقية. ومما لا شك فيه أنّ شكل الأبواب الانزلاقية والأروقة الداخلية التي توصل إلى غرفة الدفن، بالإضافة إلى الألواح الحجرية العريضة التي تغطي الأروقة الداخلية في الأضرحة الملكية ببلاد المغرب، هو اقتباس عن نماذج الأهرامات

المصرية مع بعض الاختلافات الطفيفة، غير أنَّ هذا التأثير لم يصل فيما يبدو إلى بلاد المغرب مباشرة، بل مرَّ بمناطق أخرى كاثيوبيا التي تشبه أهراماتها معلم لجدار بتهرت.

خ. وضعية الغرفة الجنائزية: غرفة الدفن في ضريح بلاد القيطون لا تتوسط المعلم وهي دائرية الشكل يبلغ قطرها حوالي 3,75م وارتفاعها حوالي 65,3م يسبق واجهتها ثمانية أعمدة، تحملها قواعد بشكل الشبه المنحرف وتتَّوَجَّ بحجارة مصقولة يبلغ طولها 2,12م وكانت كل حجرة تربط بين عمودين اثنين، وتتصل فيما بينها بحفر جانبية لتشكل رواقا تحمل هذه الحجارة فوقها قبة مقوسة (J. P. LAPORTE, 2010، الصفحات 99-100) (أنظر الشكل رقم 13).

الشكل رقم 13: رسم لمقطع طولي وعرضي للغرفة الجنائزية لضريح بلاد القيطون

Source: J. Pierre, La Porte, p 100.



د. التابوت: يذكر المؤرخ AMMIEN MARECELLIN بأنَّ التابوت مسيحي يعود الى القرن الرابع الميلادي لهذا أخذ الضريح نفس التاريخ أي الرابع الميلادي أي يعود الى الإمبراطورية السفلى بين حكم الامبراطور قسطنطين والغزو الوندالي لمورطانيا القيصرية (GSELL, ST,, 1898, p. 495). كما يؤكد جون لابورت بأنَّ التابوت كان من الرخام منحوت الواجهة، فقد وُجِدَت أجزاءه مبعثرة هنا وهناك في الحفريات والتي كشفت لنا عن أجزاء نحتت عليها اليمامة وجسم عصفور يحمل في منقاره شيئا مدورا، ووجه رجل بدون لحية ينظر إلى الجهة اليمنى، ورجل بحذاء وجسم إنسان بدون رأس يرفع يده اليمنى (أنظر الشكل رقم 14).

هذه الزخارف المنحوتة على التابوت توحى بأنها تعود إلى القرن الرابع الميلادي. ويذكر بأنَّ رخام هذه البقايا تشبه تقريبا رخام الكرار، والذي يتَّسم بنصاعته وعليه حبيبات رقيقة جدا، كما يجزم الباحث لابورت بأن هذا التابوت حتما مستورد. (J. P. LAPORTE, 2010، صفحة 100)



الشكل 14: أشكال لأنصاف التابوت الرخامي

Source: J. Pierre, La Porte, p100

ذ. مظاهر فن القرن الرابع الميلادي من خلال زخرفة الضريح: تتجلى مظاهر فنّ القرن الرابع الميلادي في ضريح بلاد القيطون في تلك اللوحة الحجرية التي عثر عليها ستيفان غزال شمال الضريح، والتي كانت مثبتة في إحدى واجهاته الخارجية، نُقشت على هذه اللوحة سمكتان يتوسطهما قدحٌ (شعارات مسيحية)، اللاتي انتشر استعمالهن في المباني الدينية والعامة العائدة إلى القرن الرابع ميلادي. أما أطراف اللوحة فتغطيها زخرفة نباتية (أوراق اللبلاب، وفروع نباتية). إلى جانب هذا نجد صورة اليمامة والصور النصفية للأدميين المتجهة نحو اليمين، والتي نُقشت على الواجهة السفلى من التابوت. كما لا ننسى بالذكر التشابه الكبير في العناصر المعمارية التي يقوم عليها ضريح بلاد القيطون (خصوصاً الأعمدة والتيجان الأيونية) مع البنايات الدينية والمدنية العائدة إلى القرن الرابع الميلادي (كنيسة تيبازة) (St. Gsell, p. 484) (أنظر الشكل رقم 14 و15).

الشكل رقم 15: قطعة حجرية مزينة بسمكتين (شعارات مسيحية)

Source: J. Pierre, LaPorte, p 96



3- الدراسة المقارنة لضريح بلاد القيطون والأضرحة النوميديّة وموريطانيا القيصرية

أوجه التشابه:

يشارك ضريح بلاد القيطون مع الأضرحة الملكية النوميديّة والموريطانية، ابتداءً من ضريح المدغاسن الذي يعود إلى القرن الثالث قبل الميلاد بمنطقة الأوراس، وضريح لجدار بمدينة تيارت الذي يعود إلى القرن الخامس والسادس الميلاديين، مروراً بالضريح الموريطاني بمدينة تيبازة الذي يعود إلى القرن الأول قبل الميلاد، وضريح صومعة الخروب الذي يعود إلى القرن الثاني قبل الميلاد، وضريح أقبو الذي يعود إلى النصف الثاني من القرن الأول الميلادي، في كل من:

أ. المنصة الأمامية: هي عبارة عن باحة أمامية متّجهة نحو الشرق وذلك لاستمرار علاقة الطقوس الجنائزية بعبادة الشمس لدى المجتمعات الليبية (شنيقي، 2003، صفحة 429)، وقد خصصت هذه المنصة للأعياد والمراسيم الجنائزية وجدت المنصة في كل من بلاد القيطون وضريح لجدار دون ذلك ضريح أقبو (G. Camps، 1998، الصفحات 176-174 PP) وضريح الخروب (Mathilde، 2018، pp. 71-80) وضريح جميلة وضريح سيفاقص بسيقا الذين لم يستحوذوا على هذا النوع من الباحات .

ب. المدخل باتجاه الشرق: هو مدخل أرضي يؤدي إلى الأروقة الداخلية المؤدية بدورها إلى غرفة الدفن تتجه هذه الأبواب في جميع الأضرحة الملكية النوميديّة والموريطانية وضريح الخروب والمدغاسن وضريح جميلة ولجدار والمدغاسن نحو الشرق (G.CAMPS، 1961، pp. 214-216) وهي جهة إله الشمس الذي قدس كثيراً ومنذ القدم، الا ضريح أقبو الذي مدخله من ناحية الشمال (عمروس، صفحة 2010، ص110).

ج. الأبواب الوهمية: يشترك ضريح بلاد القيطون في هذه الخاصية مع قبر الرومية وهي عبارة عن إفريز من الأبواب الصماء تحيط بها أعمدة متوجة بتيجان أيونية ومع جميع الأضرحة النوميديّة والموريطانية التي ذكرناها فهي عبارة عن الواح حجرية مقسومة الى قسمين متناظرين.

د. السقف الهرمي المدرج: يزين ضريح بلاد القيطون سقفا هرميا شبيها لمعلم الجدار بتمهرت وضريح لخروب و المدغاسن و ضريح أقبو الذي يعود الى النصف الثاني من القرن الأول وضريح جميلة، حيث تتخذ سقوفها الشكل الهرمي المدرج والمقتبس من نمط الأهرامات المصرية (GSELL, ST,, 1898, p. P62)

ذ. الأروقة الداخلية والأبواب الإنزلاقية: توصل هذه الأروقة إلى غرفة الدفن وتمتاز بالطول وقلة الاتساع (ضيقة)، ويشترك ضريح بلاد القيطون مع ضريح المدغاسن والخروب وقبر الرومية في

أشكالها الدائرية. تُفتح هذه الأروقة بأبواب عبارة عن ألواح حجرية انزلاقية*، ومما لا شك فيه أن شكل الأبواب الانزلاقية والأروقة الداخلية التي توصل إلى غرفة الدفن، بالإضافة إلى الألواح الحجرية العريضة التي تغطي الأروقة الداخلية في الأضرحة الملكية ببلاد المغرب، هو اقتباس من نماذج الأهرامات المصرية مع بعض الاختلافات الطفيفة. غير أن هذا التأثير لم يصل فيما يبدو إلى بلاد المغرب مباشرة بل مر بمناطق أخرى كأثيوبيا التي تشبه أهراماتها معلم الجدار بتمهرت.

2.4 أوجه الاختلاف:

أ. الشكل الخارجي المثلثي: يشبه ضريح بلاد القيطون الأضرحة الملكية النوميديّة والموريطانية مثل ضريح أقبو من حيث شكل المبنى، المتمثل في الشكل المثلثي ويغطيه طوق أو سقف هرمي مدرج ثماني الأوجه (عمروس، 2010، p. 254)، ويختلف عن ضريح المدغاسن وقبر الرومية اللذان يرتكان على قاعدة أسطوانية وطوق ذو الشكل المخروطي مما يجعلهما ينتميان إلى صنف القبور المخروطية والبازينات ذات الأصول المغربية، كما يختلف ضريح بلاد القيطون عن معلم لجدار بتمهرت الذي يقوم على فكرة التربع المستمدة من نماذج الأهرامات المصرية كما يختلف عن ضريح دوقا؛ و ضريح الخروب فهما من الأضرحة البرجية.

ب. وضعية الغرفة الجنائزية: غرفة الدفن في ضريح بلاد القيطون لا تتوسط المعلم وإنما خلافاً لباقي الأضرحة النوميديّة والموريطانية التي غالباً ما نجدها في الوسط.

4- النتائج:

بعد تحليل أوجه الشبه والاختلاف بين ضريح بلاد القيطون والأضرحة الملكية النوميديّة والموريطانية، أمكن استخلاص مجموعة من النتائج التي توضح مكانة هذا المعلم ضمن النسق المعماري الجنائزي لشمال إفريقيا. تسلط هذه النتائج الضوء على التداخل بين العناصر المحلية والتأثيرات الخارجية، كما تكشف عن خصائص معمارية تميز ضريح بلاد القيطون عن غيره من المعالم الجنائزية في المنطقة.

أولاً: التواصل الحضاري والديني المشترك

يتضح من أوجه التشابه أن ضريح بلاد القيطون ينتمي إلى سياق معماري وثقافي مشترك بين المجتمعات الليبية-الأمازيغية في شمال إفريقيا، حيث يظهر تأثيرها الواضح بعبادة الشمس، ويتجلى ذلك في توجيه المنصة الأمامية والمداخل نحو الشرق، تماماً كما هو الحال في الأضرحة الملكية النوميديّة والموريطانية مثل المدغاسن وقبر الرومية والضريح الموريطاني بتيبازة، وضريح دوقا والخروب هذا التشابه يشير إلى وحدة فكرية وروحية كانت تحكم الطقوس الجنائزية في المنطقة.

ثانياً: تأثير واضح بالنماذج المعمارية الأجنبية

يكشف استخدام العناصر المعمارية مثل الأروقة الداخلية الضيقة، والأبواب الانزلاقية، والسقف الهرمي المدرج عن تأثير ملحوظ بالنماذج الجنائزية المصرية القديمة، مع احتمال انتقال هذا التأثير إلى شمال إفريقيا عبر إثيوبيا، مما يسلط الضوء على التفاعلات الحضارية العميقة عبر الصحراء الكبرى والبحر الأحمر.

ثالثاً: تميز معمار ضريح بلاد القيطون

رغم أوجه التشابه، يتميز ضريح بلاد القيطون بعناصر فريدة أهمها:

- الشكل المثلث للبناء الخارجي والسقف الهرمي ثماني الأوجه، ما يجعله يبتعد عن النماذج المخروطية (البازينات) كما هو الحال في المدغاسن وقبر الرومية.
- موقع الغرفة الجنائزية الذي لا يتوسط المعلم خلافاً للأضرحة الأخرى، بل يتخذ موضعاً مختلفاً، وهو ما يعكس توجهاً خاصاً في التصور البنيوي للدفن.

رابعاً: هوية معمارية هجينة

يمكن القول أنّ ضريح بلاد القيطون يُعد نموذجاً انتقالياً وهجيناً، يمزج بين التقليد المحلي الملكي النوميدي والموريطني، والتأثيرات الخارجية (خصوصاً المصرية عبر إثيوبية)، ما يمنحه طابعاً معمارياً مميزاً ومتفرداً يعكس مرونة حضارية وقدرة على التكيف مع الموروثات الثقافية والدينية المختلفة.

5- الخاتمة:

إن وجود الضريح في مكان مرتفع وفي الناحية الغربية لمنطقة القبائل هو حدث مهم يستوجب التمعن فيه. فقد استخدم الفينيقيون الموانئ البحرية التي أعاد الرومان استخدامها والمتواجدة في كل من تيقزيرت وبرج البحري وتاكسابت، لكن المناطق الداخلية كانت أقل رومنة، حيث عُثر على مزارع وأبراج ومراكز عسكرية وحصون. لهذا لا يمكن نسب ضريح بلاد القيطون إلى أحد أثرياء الرومان، ولكن إلى أحد الملوك المحليين الذي كلّف أحد المهندسين بتشيد هذا الضريح، والذي قام بجلب العمال من مناطق مجاورة.

كما نضيف أن الضريح يحتمل أنه يعود إلى القرن الرابع الميلادي، أي الفترة المسيحية، وذلك من خلال التابوت الذي وُجد به والذي يحمل رموزاً مسيحية أرخها الباحثون بالقرن الرابع ميلادي. كما أن اقترابه في الشكل من كنيسة تيقزيرت المؤرخة بالقرن الخامس الميلادي، والضريح الموريطني الذي بُني بعد ثلاثة قرون من بناء ضريح بلاد القيطون، يعبر عن استمرارية ذكرى الملك الموريطني المستقل السابق (ضريح يوبا الثاني) الذي كان من رعايا الرومان (GSELL, ST., 1898, p. 499).

كما يقترب ضريح بلاد القيطون في شكله مع عدد من المعالم الجنائزية لموريطانيا القيصرية، كضريح لجدار بمنطقة الفرندة الذي يعود لنفس الفترة، حيث تقول الباحثة بلانش إن ضريح لجدار بُني بأيادٍ مورية، وأن ضريح بلاد القيطون أقدم من ضريح الجدار. (GSELL, ST., 1898, p. 499). كما نُورخ الضريح بالقرن الرابع ميلادي استنادًا إلى تأريخ الباحثين لتابوت الغرفة الجنائزية المزيّن برموز مسيحية.

وفي ختام هذه الدراسة، ورغم الدلائل التاريخية التي توافرت لدينا من أن نوبل حليف الرومان وعائلته هم الذين قطنوا المنطقة مع قبيلتهم الكبيرة المسماة بـ"جوبالين"، ورغم النقائش والعثور على كلمة "نوبل" و"فيرموس" في العديد من الكتابات اللاتينية، إلا أننا لا نستطيع أن ننسبه إلى ملك معين، بل نكتفي بالقول إن الضريح يعود إلى أحد الملوك الأفارقة الموريين الذين هم كثيرون.

أما عن تشابه عمارة المبنى مع بعض الكنائس التي تؤرخ بقرن من الزمن بعد بنائه أو عدة قرون، ففي هذا الأمر يذكر المؤرخ أميان مارسيلان Ammien Marcellin أنه حدثت استمرارية لهذه الفنون، وأن ذكرى الملك الموري بقيت راسخة في أذهان الملوك الذين جاءوا من بعده.

قائمة المراجع

أولا المراجع باللغة العربية

1. شنيقي محمد. (2003). أضواء على تاريخ الجزائر القديم. مجلة بحوث ودراسات، 429. (بدون تاريخ)
2. عمروس. (2010). الأضرحة الجنائزية الرومانية بالجزائر. معهد الآثار: جامعة الجزائر 2.

ثانيا المراجع باللغة الأجنبية

3. CAMPS G. (1984). *Rex Gentium Maurorum Et Romanorum* . , Recherche Sur Les Royaumes De Mauritanie Des VI et VII Siècles.184 .
4. CAMPS G. (1961). *Aux origines de la Berbérie, Monuments Et Rites funéraires Protohistoriques* .paris.
5. Cazeaux 2018 Mathilde. (2018) .la soumaa du khroub ou linvention du tombeau de massinissa .*l'année du Mghreb*,2018.80-71 ،
6. G. Camps » .Firmus » , Encyclopédie berbère [En ligne] . doi:https://doi.org/10.4000/encyclopedieberbere.1940
1. G.CAMPS .(1961) .*LESS MONUMENT FUNERAIRES PROTOHISTORIQUE D'AFRIQUE DU NORD* .CNRS / Edisud.
2. Gsell (S.) .(1903) .Observations géographiques sur la révolte de Firmus. Ree. des Notices et Mém. de la Soc .archéol. De Constantine.37 ،
3. GSELL, ST., (1898). *Académie des inscriptions s et belle lettres* 1898.
4. I Lord .(2011) .*Gestionnaires inspirants : les 10 règles de communication des leaders* .Montréal, Québec: Éditions Logiques.

5. J .P.LAPORTE 19-16) .DECEMBRE, 2010 ، (LAFRICA ROMANA .
(المحرر)CARROCCI EDITORE
6. St. Gsell. (s.d.). *Le mausolée de Blad-Guitoun (fouilles de M. Viré)*.
7. VEGNERAL, Ch .(1868) .*Ruines Romaines De L'Algérie, Kabylie De Djurdjura* .
Paris.